عبد الرحمن بن خلدون

نص الدراسة التي قدمها الاستاذ

حسن الزمرلي

على منبر

جمعية الاخاء القيرواني

غرة جمادى الثانية ١٣٧٥

مطبعة الشمال ١٩ شارع روسطان ـ تونس

بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية الإخاء القيرواني

— فرع تونس —

مما يبهج النفس ويبعث على المفاخرة والمباهاة، أن تتجمع ثلاثة عناصر تجمعا مباركا على اخراج هذا السفر القيم من الدراسة الممتعة صغيرا في حجمه كبيرا في فائدته .

وما هذه العناصر الا .

١) مفخرة تونس والاسلام ، مبتكر طريقة النقد التاريخي ومؤسس علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون .

٢) أديب كبير وبحاثة ممتاز يفتخر به أدبنا التونسي المعاصر الاستاذ حسن الزمرلي .

٣) منظمة ثقافية هيكلها (شباب قوي الارادة، شاعر بمسؤليته القومية والتارخية) وهي جمعية الاخاء القيرواني) التي سارت على سنن الاباء الاكرمين وأمجادهم التي يفتخر بها تاريخ البحر الابيض المتوسط مهد الحضارات ومسرح اقدم المدنيات ـ وبذلك نستطيع تمتين الوصل بين الماضي الزاهر والحاضر الباسم لاجل

مستقبل سعيد حافل بالمبرات لاننا لسنا من أولئك الذين أعوزتهم الحيل وفقدوا الحول والقوة ، وراحوا عاكفين يتغنون بماض هو فى الحقيقة ـ ملك لاهله الذين عاشوه . وانما نحن قوم نشعر أن مركز بلادنا العالمى كان ولا يزال المعيار الصادق عن وجودنا فى بوتقة الامم الراقية القوية ، فلذلك طفقنا ننشد أغانى المجد القديم مرفوقة باناشيد الامل الباسم، أناشيد البعث والثورة لخلق مستقبل هو رائد الجميع .

وما الحركات التى ستقوم بها جمعيتنا بمعية الجمعيات الثقافية التونسية فى المستقبل الا اول واعظم برهان على وجود تلك الارادة العارمة فى نفوسنا تدغدغ احلامنا وتخالج افكارنا وستبرز للواقع لنساهم فى تشييد (تونس الغد).

وان (جمعية الاخاء القيروانى) حين تقدم بكل فخر وسرور حضرة أستاذنا الجليل الاستاذ حسن الزمرلى ليدرس شخصية ابن خلدون العالمية لا يسعها الا التعبير عن جزيل شكرها العميق باسمها الخاص ونيابة عن الشباب الذى بقى متلهفا الى مثل هذا البحث الموضوعى ـ ولسان حاله ـ يطالب ملحا من أدبائنا النسج على مثل هذا المنوال ليمكنوا الناشئة الادبية والعلمية من زاد وافر المادة غزير الفائدة .

وبهذه المناسبة تهيب جمعية (الاخاء القيروانى) بقادة الراى وزعماء الفكر ببلادنا أن يعكفوا على صقل مرآة تاريخنا الثقافى الحافل ليزيلوا عنها تلك الغشاوة السميكة من الغموض والابهام والجهل والنسيان وليبرهنوا للعالم ان لتونس (والمغرب العربى عامة) رصيدا غنيا من الامكانيات العلمية، كيف لا وتاريخنا ذاك يزخر بعشرات من امثال ابن خلدون .

فاليكم معشر ادباءنا ومفكرينا وزعماءنا تتجه صرخة الاستنجاد هذه وسوف لا يبخل الشباب عن مدكم بما يمد به الجندى رائده وقائده .

واليك ايها الشباب العربى دعوة (الاخاء) ترجوك البر بالاجداد ومزج حاضرك بماضيك لتنتج عنها غدا كريما .

كما أن الساعة قد دقت (منذ حين) لنعول على انفسنا بتكوين وتشجيع مشاريعنا العلمية والثقافية .

ألم يكفنا أننا لم نزل عالة على الانتاج الاجنبى .

نعم كفانا من توهم العجز أو توقع الخيبة او ليست طريقتنا فى حياتنا العلمية والثقافية والادبية الان طريقة من يجتز أو يزدرد ما هو اجنبى عنه نعم اننا نعتز بالشرق والانتساب اليه ونرنو الى الغرب لنقتبس منه أفضل ما فى

مدنياته وثقافته لنحرز على ما يسمى (باللقاح) ولكن أليس فينا وبيننا من وما يمكننا من تحاشى ذلك الاجتـرار وذلك الازدراد ونعنى بهذا ما عناه الكثيـر من بعث (ثقـافة قومية) لا يمكن أن تبرز وتشاد هياكلها الا من افكار قومية وبسواعد سبر اصحابها أغوار الواقع القومى ٠

فمتى نراك ايتها (الثقافة القومية) ومتى ستبرزين للوجود لتزينى جباهنا وتقيلينا معرة التقليد والمحاكاة ٠

وفى الختام هاهى (الاخاء) تتبرأ قائلة كفانـا انناشعرنـا فساهمنا قدر طاقتنا وبلغنا٠

عن الهيئة رئيس الفرع

فرج الجباس

= تمهيـــد -

لقد سررت كثيرا لما دعتنى جمعيــة « الاخــاء القيروانى » للقيام بمحاضرة تحت اشرافها ٠

وسبب هذا السرور هو انى «ككل تونسي» محب لمدينــة القيروان الزاهرة العريقة فى المجد ، منبع الحضــارة الاسلاميــة العربية بالبلاد التونسية، ومنبت كثير من الاعلام الذين رفعــوا رأس بلادنا عاليا فى القديم وفى الحديث

وأنى أذكر زيارة أديتها، فى أحد انتقلاتى، لناد من اندية الشبــاب هناك ٠ قلت فيهــا للحاضرين : لمــا احتل نــابوليون بونابارت البلاد المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر، التفت هذا القائد نحو جنوده وقال لهم: «ان اربعين قرنا من المدنية تبصركم من اعلى هذه الاهرام» وأنا اقول لكــم، يا أبنــاء القيروان : « ان أربعة عشر قرنا من الحضارة الاسلامية العربية تبصركم من اعلى صومعة عقبة بن نافع ٠ فانتم مسؤولون عن هذه الحضارة واعادة ازدهارها بين ربوعنا فكونوا عند حسن الظن بكم حتى لاينطفىء هذا المشعل الذى أنار العالم فى العصور السابقة وسيعيد انارته فى المستقبل اذا اردتم أن ينسج الخلف على غرار السلف ٠

فكانى بهذا الكــلام قد وجد صداه وبان ابنــاء القيــروان يعملون جادين للمشاركة فى بناء صرح الامة التــونسية الجديد فتدعونى جمعية ثقافية قيروانية لاتحدث اليها لا عن احد أعــلام

القيروان ، بل عن شخصية عالمية فذة ، انبتتها التربة التونسية فابهرت العالم باسره بما أوتيت من قوة فى الابتكـار ، ومتانـة فى التفكير وغزارة فى العلم • فاسرعت فى اجابة الطلب وهانا بينكم اليوم لنتحدث عن عبد الرحمن بن خلدون •

ونظرا لكوننا نرمى من وراء هذا الحديث الى تلخيص أحد المواضيع المرسومة ببرنامج المادة الكتابية من امتحـان شهـادة التحصيل بالكلية الزيتونية العزيزة المعمورة ، وابراز أهـم مـا يجب أن يعرف منه ، فان حديثنا سوف يكون هذه المـرة أقرب الى الدرس منه الى المحاضرة • لان المحاضرة تقتضى من المحاضـر أن ياتى بارائه الخاصة فيما يقدمه لسامعيه • وهذه الصـورة لا تكون ممكنة الا اذا انحصر بحثنا ودراستنا فى نظرية واحدة من نظريات ابن خلدون ، أو باب واحد من ابـواب مقدمته المفحمـة بالاراء القيمة ، والابتكارات العجيبة ، والملاحظات العميقة، واذا تناولنا تلك النظرية ، أو ذلك الراى، او الابتكار أو المـلاحظة « بالتمحيص والتعليل » على حد قول صاحبنا • وليـس هذا ما طلبنا بالقيام به •

ولذا فان عملنا سوف يكون مقصورا على جمع أهم ما نعلمه عن حياة ابن خلدون وتراثه الفكرى ، وعلى التعرض لاهم ما قاله فيه من درسه من كتاب الشرق والغرب مع التبسط فى الطريقة التى ابتكرها لكتابة التاريخ والعلم الجديـد الذى أنشاه ليدعـم

به تلك الطريقة ، وهو علم الاجتماع ، ونقدم هذا العمل المتواضع، في عدد محدود من الصحائف، لابنائنا طلبة الزيتونة كمذكرة يستعينون بها عند المراجعة ، وعملا بهذه الطريقة نقول :

تقسم حياة ابن خلدون الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : من ولادته الى الواحدة والعشرين من عمره وهى مرحلة تعلم ودرس وتطلع . وتنتهى هذه المرحلة بالنكبة الاولى التى انتابت ذلك الشاب من جراء الطاعون الجارف الذى افقده أبويه وغالب مشيخته .

والمرحلة الثانية ، من الواحدة والعشرين الى الرابعة والاربعين وهى مرحلة التنقلات فى مختلف انحاء المغرب، وبلاد الاندلس ، ودخول المغامرات ، والتقلب فى الوظائف السامية ، وتنتهى بنكبته الثانية وهى اخفاق مساعيه ، واغلاق جميع قصور المغرب فى وجهه ، واعراض جميع الملوك والسلاطين والامراء عنه .

والمرحلة الثالثة ، من الرابعة والاربعين الى وفاته فى الثامنة والسبعين ، وهى مرحلة الاعتكاف والانقطاع للتاليف والدرس بقلعة ابن سلامة وتونس ثم للدرس ومباشرة خطة القضاء بارض الكنانة . وتتخللها نكبته الثالثة بفقدان عائلته وكل ما

جمعه من متاع .

. * .

فنحن الان فى النصف الثانى من القرن الثامن للهجرة ، الموافق للنصف الثانى أيضا من القرن الرابع عشر للميلاد ، اى فى ذلك العهد الذى حدثت فيه انقلابات كبيرة فى الشرق والغرب آلت الى نهضة هذا وتقهقر ذاك ، اذ استيقضت البلاد الاروبية من سبات القرون الوسطى ، وأخذت تتحفز للنهضة والانبعاث بعد ما قطعت كل صلة مع العالم العربى الذى استفادت منه أيما افادة ، وبعد ما أخذت منه ما أخذت من العلوم والفنون والصناعات ، وبعد ما أنشأت الجامعات العديدة ، فى مختلف مدنها ، على غرار الجامعات العربية وعلمت فيها بكتب علماء العرب ، وفلاسفة العرب ، وأدباء العرب وقد نقلت عيون مؤلفاتهم الى اللغة اللاطينية ـ وهى لغة العلم بغرب أروبا فى ذلك العصر ـ وبعد ما أنبتت رجالا أمثال دانتى ، وبيترارك ، وبوكاتشيو ، وفرواسار ، ففتحوا على بصيرتها ، وأشعروها بعزتها ، فشرعت من ذلك الحين فى سيرها نحو السيادة على العالم

وكان هذا العهد بالنسبة للبلاد العربية على نقيض ما كان عليه بالنسبة للبلاد الاروبية . فقد أخذت فيه النكبات تنصب الواحدة تلو الاخرى على العالم العربى . فتفككت وحدته وأضحى فريسة سهلة الاقتناء لذوى الاطماع واصحاب الطموح ومحبى

الرآسة ، والدعاة الى الاستقلال برقع صغيرة مما كان العالم الاسلامي الموحد تحت لواء الخلافة. فالدولة السلجوقية قد أنقرضت في الشرق وأدى انقراضها الى انقسام البلاد الى دويلات وامارات صغيرة .

وفي بلاد الاندلس تغلب ملوك الاسبان على المسلمين فاطردوهم من غالب عواصمهم ومدنهم ولم يبق مؤقتا بين أيدى المسلمين الا رقعة صغيرة تتوسطها غرناطة، مدينة الفن واللهو، بيد الملك محمد بن الاحمر .

واما المغرب العربي فقد تقسم الى ثلاث دول أصلية بين أيدى الحفصيين بافريقيا وعاصمتهم تونس، وبنى عبد الواد بالمغرب الاوسط وعاصمتهم تلمسان، وبنى مرين بالمغرب الاقصى ، وعاصمتهم فاس. وداخل «هذه الدول الثلاث دويلات وامارات صغيرة ثانوية في بعض القواعد والثغور في حكم بعض الخوارج والزعماء الاقوياء . »

وفي ذلك العهد ، كانت الثورات والانقلابات مستمرة تكاد لا تنقطع والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والاسر. وكانت تضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها. فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها في يد القدر ، وكانت قصوره لذلك مهبط الاطماع والمنافسات، ومكن الدسائس والمكايد، والعروش

دائمة التقلب والتداول ، والحروب والمعارك الداخلية دائمة الضرام بين مختلف الاسر وفروع الاسرة الواحدة» ٠ (١)

وبالرغم من ان تلك القصور كانت فى فترات السلم والهدوء القصيرة « محط العلماء والادباء » وبالرغم من ان السلاطين والملوك والامراء كانوا يتنافسون لجلب هؤلاء الرجال «كى يزدان بهم بلاطهم » فان الحركة العلمية قد توقفت باسترسال الحوادث الحربية كما توقفت بالشرق لان عدم استقرار الحالة السياسية وكثرة الاضطرابات لا تترك للافكار اللامعة والقرائح الفياضة مجالا للاستمرار فى عمل جدى يتطلب الهدوء والسكينة والاطمئنان على النفس والاهل ٠ وقليلا ما سمعنا برجل دخل مثل هذه المعارك يدفعه اليها طموحه نحو المعالى فيبحث فى اسبابها ومحركاتها ونتائجها ، ويقيم على بحثه علما جديدا يركز عليه حياة المجتمعات وتطورها ٠ ومع ذلك فقد وجد هذا الرجل ليكون خاتمة اهل العلم والفلسفة لذلك العهد وحامل مشعل علم الاجتماع للعصور الموالية ٠

ففى وسط هذه الزوابع المستمرة التى كانت « تهتز لها عروش المغرب» العربى، والتى سال فيها الدم، وجف القلم، نرى شابا لم يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره ينسل خلسة من هوارة بعد ما شهد هزيمة جيش سيده الوزير محمد بن

(١) عبد الله عنان ــ ابن خلدون ٠

تافراكين المستبد على الدولة يومئذ بتونس ، فينجو بنفسه الى أبة وهى فرصة كان يترقبها «للنزوح الى المغرب الاقصى للبحث وراء طالعه وليعالج تحقيق اطماعه حيثما يلوح افق المغامرة اوسع وأجدى » ٠

فمن هو هذا الشاب ومن اين منبته ، وما شانه ، وما هى قيمته ، وما كان مصيره وما ترك من بعده من تراث ؟٠

هذا الشاب هو ولى الدين عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمان بن خلدون ٠ ولد بتونس فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ الموافق للسابع والعشرين من شهر ماى سنة ١٣٣٢ م بالنهج المعروف اليوم بنهج تربة الباى وبالمحل الذى تشغله اليوم المدرسة الادارية٠ وهو من اسرة اندلسية يرجع اصلها الى العرب اليمانية بحضرموت نزحت من الاندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى ٠

قلنا ان ابن خلدون قد انسل خلسة من معسكر ابن تافراكين لينجو بنفسه ويبحث وراء طالعه ٠ ولم يكن هذا الصنيع من طرفه نتيجة فزع اعتراه أو فكرة تلقائية دفعته بل هو نتيجة تفكير طويل مرتكز على أسباب عديدة أهمها :

١ ـ ان عبد الرحمان بن خلدون ينتمى الى أسرة ماجدة ، عريقة نابهة وبيت علم ورآسة ، تقلب عدد كبير من أعضائها فى مناصب

الزعامة والرئاسة سواء فى صدر الاسلام قبل انتقالها الى الاندلس أو بالاندلس نفسها أو بالمغرب الاقصى · فهو يتصل فى سلسلة أجداده بسيدنا عمرو بن العاص وان اثنين من رجال أسرته كانا من زعماء الدولة الاموية وقد شاركا فى القبض على زياد بن ابى سفيان المعروف فى كتب التاريخ بزياد بن أبيه والى العراق وأخ سيدنا معاوية بن ابى سفيان ، اول خلفاء الدولة الاموية ومبتكر حصر الملك والخلافة فى العائلات والاسر · وان كريب وخالد ابنى خلدون كانا من زعماء الثورة باشبيلية فى أواخر القرن الثالث وان نجم بنى خلدون كان ساطعا فى عهد الطوائف عند ما استولى بنو عباد على اشبيلية . وان جماعة منهم شاركوا فى موقعة الزلاقة التى انتصر فيها المرابطون على الفونس السادس ملك قشتالة، وان اسرته نعمت بالجاه والسعة ايام الدولة الحفصية وان جده الثانى أبا بكر محمد بن خلدون قد ولى شؤون الدولة فى عهد ابى اسحاق الحفصى وان جده محمد بن ابى بكر قد ولى الحجابة لابى فارس وإن والده محمدا ان لم يشارك فى الحياة السياسية فلانه زهد فيها وآثر عليها حياة الدرس والعلم والشرف « حتى كان من أكابر الفقهاء وعلماء اللغة » ·

وقد أراد عبد الرحمان اقتفاء خطى أسلافه فلا غرابة اذن فى أن يكون طموحا الى المعالى محبا للزعامة والرئاسة وقد اجتمعت

فى راسه وفى نفسه نفحة الجدود وعلوم الوالد الودود ٠

٢ ـ لان ابن خلدون لم يكن مسافرا بدون زاد ٠ وان هو قرر مغادرة مسقط راسه لما لاحظه بتونس من الاظطرابات التى لا تسمح له بتحقيق أمنيته ، فانه قد هيأ نفسه لان يشغل المناصب التى شغلها أفراد أسرته من قبله فثقف نفسه ثقافة متينة واسعة متنوعة ٠ فقرأ القرءان العظيم بالقراءات السبع المشهورة افرادا وجمعا على الاستاذ المكتب ابى عبد الله محمد بن سعد بن برال الانصارى وعرض عليه قصيدتى الشاطبى : اللامية فى القراءات والرائية فى الرسم ، وعرض عليه كتاب التقصى لاحاديث الموطأ لابن عبد البر ودرس عليه كتبا جمة مثل كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر ابن الحاجب فى الفقه ٠ وتعلم صناعة العربية على والده الذى كان يشمله بعطف خاص ويميزه على بقية أبنائه وعلى الشيخ أبى عبد الله محمد بن العربى الحصايرى وعلى أبى عبد الله محمد بن الشاوش الزرزالى وابى العباس أحمد بن القصار ، وعلى امام العربية والادب بتونس ابى عبد الله محمد بن بحر وكان حسب قوله بحرا زاخرا فى علوم اللسان فحفظ عليه كتاب الاشعار الستة ، والحماسة للاعلم ، وشعر حبيب وطائفة من شعرالمتنبى ومن اشعار كتاب الاغانى، ولازم مجلس امام المحدثين بتونس شمس الدين أبى عبد الله محمد الوادياشى، صاحب الرحلتين وسمع كتاب الموطأ من اوله الى آخره وبعضا

من الامهات الخمس، وناوله كتبا كثيرة فى العربية والفقه . كما أخذ الفقه عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله الجيانى وأبى القاسم محمد القصير وقد قرأ عليه كتاب التهذيب لابى سعيد البرادعى وكتاب المالكية وتفقه عليه . وكان ينتاب مجلس الشيخ الامام قاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام فأخذ منه وسمع عليه كتاب الموطا للامام مالك .

والى جانب هؤلاء العلماء الاجلاء فقد اتصل الشاب عبد الرحمان بن خلدون بالعلماء الذين قدموا على تونس فى جملة السلطان أبى الحسن المرينى عند ما زحف على افريقية وملكها سنة ٧٤٨ وعلى رأسهم شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الابلى الاخصائى فى كتب التعاليم والمنطق والاصلين .

ويظهر من كلام ابن خلدون عن الابلى أن هذا العالم الممتاز قد ترك فى نفسه أثرا عميقا وأنه هو الذى وجهه نحو التفكير المنطقى وتحكيم العقل، كما يظهر أن ما جاء فى تاليف ابن خلدون من دقة فى التفكير وحصافة فى الراى وضبط فى التعبير وقوة فى الحجة انما هو نتيجة تاثير الابلى وطريقته فى البحث والتفكير

فمن البديهى ومن المقبول أن الرجل الذى انحدر من مثل هذا الصعيد واكتسب مثل هذا العلم وامتلات نفسه بمثل هذا الطموح لم يكن ليرضى بوظيفة كتابة العلامة التى كلفه بها الوزير محمد بن تافراكين عن سلطانه الفتى أبى اسحاق .

٣ ـ أضف الى ذلـك أن الكارثـة العظمى التى نكـب بها العالـم الاسلامى كله من سمرقند الى المغرب ، ونعنى بها الفنـاء الكبير أو « الطاعون الجارف » كما يسميـه صاحبنا تلك الكارثـة التى طوت البساط بما فيه وفيها ذهب الاعيـان والصـدور وجميـع المشيخة وهلك أبواه فلم تبق له الا البعض من اخوتـه ٠فتمكنت من نفسه الوحشة وتعذر عليه الاستمرار فى الـدرس واستنكف البقاء فى وسط أصبح يحس بالغربة فيه بعد ما فقد أعز ما لديه

٤ ـ وبما ان الفكرة الوطنية لم تكـن معروفـة يومئـذ بالمعنـى المعروف لدينا الان وبما أن الله لم يضرب حـدودا طبيعيـة بين الاقطار المغربية ولا بين الاقطار العربية بصورة عامة ، ولم تضرب بعد حدود اعتبارية بين مختلف جهات الوطن الشمال الافريقى، كما هى الحالة الان ، وبما أن المسلم يعتبر نفسه بحق فى وطنـه حيثما نطق بالشهادتين ونودى بالصلات وسادت لغة القرءان ، فان هذا الشاب الماجد ،العالم، الطموح، ذا الفكر اللامع والذكاء الوقاد لم يجد ما يحول دون رغبته فى مبارحة الاوطان والسعى وراء طالعه كما ذكرنا ولذا رأيناه يتسلق صفوف الجند المهـزوم ساعيا فى الالتحاق برجال بنى مرين وبالعلماء الذين تعرف اليهم بتونس وأعجب بهم ٠

ونحن نحمد الله ان غرس فى روح ذلك الشاب طموحا قويا قذف به خارج مسقط رأسه ودفعه الى السفر والمغامرة والتقلب

فى بلاد المغرب والاندلس ومصر والشام لانه لولا ذلك الطموح وتلك القوة وذلك الاندفاع، لما بقى لابن خلدون اسم يذكر ولما ازدان تراثنا الفكرى والادبى بما أنتجته تلك القريحة الممتازة من علوم ترتكز عليها اليوم حياة الدول وما سجله ذلك الفكر الجبار من آراء وملاحظات كانت خطة جديدة فى ميدان البحث والكتابة .

لان الجدير بالملاحظة هو أن ابن خلدون لم ينظر الى الاشياء والرجال بالعين التى نظر بها اليها الرحالون امثال ابن بطوطة وابن الجبير بل انه تعمق فى مكامنها بمجهره الثاقب، فبحث عن اسبابها وأبصر تطوراتها وامعن فى نتائجها وربط بين مختلف الاسباب والتطورات والنتائج واقام على هذا العمل نظريات لم تزل قائمة الى هذا اليوم بالرغم من تقدم علم الاجتماع وتطور نفسية المجتمعات

قلنا : خرج ابن خلدون من معسكر ابن تافراكين فى أوائل سنة ٧٥٣ فقصد أبة ثم تحول الى تبسة ثم سافر الى قفصة ثم الى بسكرة .

وسوف نراه من ذلك الوقت ينتقل من بلد الى بلد ومن مدينة الى مدينة ومن قطر الى قطر تدفعه نخوة الشباب وتحمله غلغلة الطموح الى مناصب النفوذ والسلطة والراسة باحثا دائما

فى زيادة الرقى منتهزا لذلك جميع الفرص مستعملا جميع الوسائل الشرعية منها وغير الشرعية متناسيا فى غالب الاحيان ما يفرضه الاخلاص واللياقة والولاء معتقدا أن الغاية تبرر لديه كل وسيلة فيدس الدسائس ويكيد المكايد ويخون اولياء نعمته ويدعو لخصومهم كل ذلك بدون أن تبدو منه اهة حسرة أو لفظة ندم ٠

وهذا السلوك الذى يبدو غريبا بالنسبة لاهل العلم والادب هو الدهاء والحكمة فى نظر رجال السياسة والطموح وهو الذى بنى عليه ماكيا فال قاعدة الحكم فى كتابه « الامير » ٠

وهكذا نرى ابن خلدون بمدينة فاس يشغل منصبا هاما بين كتاب السلطان أبى عنان وموقعيه حتى يطلع السلطان على المؤامرة الجارية بين عبد الرحمان والامير عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع فيقبض عليه السلطان ويمتحنه ويحبسه٠ فيبقى فى غياهب السجن بالرغم من استعطافه وتوسلاته وقصائده الطويلة الى وفاة أبى عنان ٠ ثم يطلق الوزير الحسن بن عمر سراحه ويعيده الى ما كان عليه ٠ فنراه يخدع هذا الوزير لفائدة المتغلب عليه المنصور بن سليمان ثم نراه يدعو لابى سالم اخ السلطان ابى عنان ضد المنصور بن سليمان فيصبح كاتب السر والانشاء لابى سالم بعد انتصاره على ابى سليمان

ويقول ابن خلـدون « انه نهج يومئذ فى كتابة الرسائل نهجا جديدا اذ تحرر من قيود السجع وكان اذ ذاك قاعدة الكتابة وعدل عنـه الى السهل المرسل » كمـا يقـول : « وتفتحـت شاعريته فى هذه الفترة فنظم كثيرا من الشعر الذى يتوسط بين الاجادة والقصور » فاشتهر امر نظمـه ونثره في دوائـر الشعر والادب بالمغرب والاندلس ٠

ولم يلبث ابن خلدون مع السلطان ابى سالـم مدة عامين حتى « ضعفت حظوته لديه » وتوارى نفـوذه لشدة المنافسات التى اضطرمت بينه وبين رجال الدولة وعلى الاخص بينه وبين الخطيب بن مرزوق صديق السلطان وقد استبد ابـن مرزوق هذا بالامر الى ان ثارت ضده وضد سيده ثورة عنيفة من طرف الوزيـر عمـر بن عبـد الله ومن اليـه ٠ فالت هذه الثـورة الى القبض على السلطان وقتله ٠ وكان ابن خلدون حسب عادته الى جانب المتغلب ٠ فاقره فى وظائفه ٠ ولكن ابن خلدون كان « يسمو بطغيان الشباب الى ارفع مما كان فيه » فلم يجد لدى عمر بن عبد الله ما يحقق أمانيه ٠ فغضب واستقال من وظائفه فوقع رد الفعل من طرف الوزير الى ان خشى ابن خلـدون عن نفسه ٠ فاستـأذن فى العودة الى تـونس مسقط راسه ٠ فلم يرخص له الوزير بذلك وانما اذن له بالسفر الى الاندلس ٠

فنراه مكرما مبجلا فى بلاط الملك محمد بن الاحمر ونراه مكرما مبجلا من طرف وزيره لسان الدين بن الخطيب · ونرى الملك يكلفه بمامورية سياسية لدى دون بادرو القاسى ملك قشتالة · ونرى نجاحه فى تلك المامورية · ثم نرى الملك ينقبض عنه اثر منافسته مع ابن الخطيب · فينتهز فرصة عودة الامير ابى عبد الله محمد الى بجاية وقد استرد ملكه فيغادر الاندلس قاصدا الالتحاق بصديقه وذلك فى منتصف سنة ٧٦٦ _ هـ ١٣٦٤ م

ويقول ابن خلدون فى حديثه عن دخوله بجاية : «فاحتفل السلطان بقدومى واركب للقائى وتهافت اهل البلد على من كل اوب يمسحون اعطافى ويقبلون يدى وكان يوما مشهودا »

فنراه يتولى فى الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية · وكان هذا المنصب فى الظاهر على الاقل نهاية ما يصبو اليه ابن خلدون حيث ان الحجابة حسب قوله : « هى الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان واهل المملكة لا يشاركه فى ذلك احد» ولربما استقر فى منصبه لو استمر ابو عبد الله محمد فى الحكم

غير ان ابن عمه سلطان قسنطينة ابو العباس هجم عليه وقتله سنة ٧٦٧ فنرى ابن خلدون ينسى صديقه ورفيقه فى المحنة والسجن بمدينة فاس وينضوى تحت لواء الظافر · فيكرمه

ثم ينحرف عنه . فينسل هاربـا الى بسكرة ويقيم بهـا مدة فى انتظار الحوادث

ثم نراه يقوم بدعاية واسعة النطاق لفائدة ابى حمو امير تلمسان وصهر ابى عبد الله محمد مع الانقطاع الـوقتى الى العلم والاقراء لانه يدعى « ان نفسه قد سئمت مخاطر المغامرة واهوال الوظيفة وزهدت فى غواية الـرتب واشتاقت الى الدرس بعد ان هجرته طويلا» .

ثم نراه يحاول احكام الصلة بين ابى حمو وابى اسحـاق سلطـان تونس

ثم يحول ولاءه لسلطان تلمسان لفائدة عدوه عبد العزيـز ابن الحسن صاحب المغرب الاقصى ويدعو اليه قبائل الصحراء .

ثم نراه من جديد بمدينة فاس عندما ساءت العلائق بيـن بـلاط فاس وبلاط غرناطـة من اجل الوزيـر لسان الديـن بن الخطيب . فيقبض عليه حينا ثم يفرج عنه . فيقـرر الرحلـة الى الاندلس بعدما اغلقـت فى وجهه قصور المغرب كلهـا . فيدخل الاندلس سنة ٧٧٦ تاركا عائلته بفاس

وعندئذ كـان موضوع المساومة المشينة التى دبرهـا ابـن زمرك ضد شيخه واستاذه ابن الخطيب متهمـا ايـاه بالـزندقة

والخروج عن شريعة الاسلام فنالت الى مصرع ابن الخطيب وهى تهمة كثيرة الاستعمال في ذلك العصر مثل غيرها من التهم المستعملة بين ربوعنا فى عصرنا هذا .

فيعود ابن خلدون الى المغرب ويعيد ربط الصلة بينه وبين ابى حمو . وبعد ذلك يقرر الاعتزال فيلتجىء الى قلعة ابى سلامة في احياء بنى عريف وهناك يشرع فى كتابة تاريخه ويبتدؤه بمقدمته المشهورة . فيقول : « فاقمت بها - اى بقلعة ابن سلامة - اربعة اعوام متخليا عن الشواغل وشرعت فى تاليف هذا الكتاب وانا مقيم بها . واكملت المقدمة على هذا النوع الغريب الذى اهتديت اليه فى تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتالفت نتائجها » وكان ذلك سنة ٧٧٩ - ١٣٧٧ م .

وبعد هذه العزلة الطويلة يلتمس ابن خلدون الاذن من ابى العباس الحفصى ملك تونس فى العودة الى مسقط راسه . فيرخص له بذلك . فيعود صاحبنا الى تونس سنة ٧٨٠ ويتولى الدرس والتعليم بين اعراص الزيتونة المعمورة التى انجبته كما انجبت وما زالت تنجب كثيرا من فطاحل الرجال وقادة الفكر . واقام بها محفوفا بالرعاية والتقدير فى دعة وأمن وسعة . وهنالك اتم تاليفه ورفع نسخته الاولى الى السلطان ابى العباس فى اوائل سنة ٧٨٤ - ١٣٨٢ م .

بيد ان هناءه لم يطل بتونس . فان ما حباه به السلطان من احسان ورعاية وما اظهره من تفوق على سواه فى المجالس العلمية والادبية وما وجده من اقبال من طرف التلامذة وقد اعرضوا عن حلقات سواه من المشيخة كل ذلك أثار من حوله الدسائس والاحقاد والحسد لا سيما من طرف خصمه الفقيه الامام ابن عرفه . شيخ الافتاء ـ وكل ذى نعمة محسود ـ والتاريخ يعيد نفسه . فاعتزم صاحبنا مغادرة تونس بدعوى رغبته فى اداء فريضة الحج والحقيقة انه سئم الحياة بين قوم :

لا يعرفون لفاضل بفضيلة   وهمو لكل نقيصة ذكار

فتحصل على الرخصة . وكانت الهجرة الاخيرة التى لا عودة بعدها . فغادر مؤرخنا تونس فى منتصف شعبان سنة ٧٨٤ ـ اكتوبر ١٣٨٢ وكانت سنه اذ ذاك اثنتين وخمسين سنة قمرية .

ويقول البحاثة الاستاذ محمد عبد الله عنان عند بلوغ ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث . ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة . ولم تكن مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب اعظم سياسى ومفكر عرفته افريقية والاندلس فى القرن الثامن الهجرى

وكانت تلك الخلال والمواهب البديعة التى حملته الى ذروة الحوادث وجعلت منه شخصية بارزة فى تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن واستطاع بفضلها ان ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحرية التى عرفت دائما بقوة الشكيمة وجفاء النزعة خليقة بان تهيء له مكانة رفيعة وطيدة فى دول العصر وقصوره ٠

« وقد انفق ابن خلدون ربع قرن فى خوض غمار السياسة ودسائس القصور ٠ وتقلب فى خدمة جميع الدول المغربية وتمتع مرارا بمزايا السيادة والحكم وذاق مرارا محن النقمة ومرارة الاعتقال والاسر وخطر الهلاك ثم اذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ ويصبح فاذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول التى تقلب فى خدمتها واسدى اليها اجل الخدمات احيانا ثم اذا به يجد نفسه فى هذا الملاذ الاخير الذى آوى اليه واستقر فى ظلاله موضع السعاية والكيد ٠ وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الخيبة ويلتمس السلوى فى البحث والتاليف ٠ وقد هدأت نفسه المضطرمة بشغف النضال والمغامرة وعاف احداث السياسة واخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التى كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرآسة ٠ وكان ينشد الاستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو ان يطوى مرحلة الحياة فى وطنه ويثوى

اليه الثواء الاخير الى جانب آبائـه واجداده . ولكنـه لم يظفـر حتى بتلك الامنية المتواضعة وازعجه كيد خصومه فى مقامه الهادىء وخشى اخيرا عاقبة الكيد والسعاية ولم يجد فى تونس ما كـان ينشد من هدوء وسكينة فاضطـر ان يلتمس الحج عذرا للرحيـل والنجاة وان يودع الاهل والولد وان يغادر الوطن وحيدا فريدا الى حيث لا يعلم ما ذا هيأت له الاقدار

هذه لعمرى دمعة جميلـة اذرفهـا الاستـاذ محمد عبد الله عنان على ابـن خلدون عند انتهاء المرحلـة السياسية من حيـاته وعند ما قـرر الهجرة من بـلاده الى الشرق . ولو لم يكـن ابـن خلدون الا رجلا سياسيا لكان الا ستاذ الجليل محقا فى قوله « ان ابن خلدون رجع حيث بدأ » فذلك هو مصير غالب رجال السياسة لكن تلك الجولة الكبرى التى قضى فيها ابن خلدون اكثر من ربع قرن هى التى مكنت مؤرخنـا ومفكرنـا من الاطلاع على حقائـق المجتمعات ودراستهـا والتبصر فى احوالهـا وحملته على كتابـة تاريخها وكانت نتيجتها ابتكار طريقته المثلى فى كتابة التاريـخ وعلى انشاء علم الاجتمـاع . لان ابن خلـدون لم يبـارح مسقط راسه قصد الاطلاع والدراسة والتاليف ولكنه انتقل الى المغـرب قصد التحصيل على النفوذ والمراتب العالية . فلما تذوق الى ما فى الحياة السياسية من لذة قصيرة الامد ومرارة طويلة الاجل وتبين من ان الراحة والهناء والطمانينة ليست من خصائصها وان الشهرة

المرتكزة عليها انما هي زائلة وان حياة الدسائس والخيانات والمغامرات لا تاتي بطائل ولما راى نفسه مطرودا منها بدون اى اعتبار لقيمته العلمية والادبية تحولت همته عندئذ نحو ما يرفع صاحبه ولو كان فقيرا نحو ما يحقق التقدير والاعتبار والرفعة فى الحياة وما يحقق حسن الذكر ودوام الرحمة وحتى الخلود بعد الممات تحولت همته نحو العلم والاقراء والدرس والتاليف . فكان ابن خلدون . فهو اذن لم يرجع حيث بدأ . بل ترك مسقط راسه كرجل سياسى فقرأ كتاب الحياة وحنكته التجارب فتمكن باللب وترك القشور وعاد الى تونس مؤرخا عالما فيلسوفا يحمل فى حقيبته تاليفا جعله سيد عصره فى مشارق الارض ومغاربها .

ثم ان ابن خلدون قرر الهجرة من مسقط راسه للاسباب التى ذكرها الاستاذ محمد عبد الله عنان ولسبب آخر اغفل عليه او تغافل هو عنه لانه لم يعش فى ربوعنا ولا يعرف نفسيتنا نحن معشر التونسيين . وهو سبب ذكرناه فى جميع المناسبات من دروس واجتماعات ومحاضرات وفصول بالصحف والمجلات . وهو حقيقة مرة من واجبنا ان نقولها ونعيدها ونذيعها وان احمر لها جبيننا وهى ان التونسى قلما يعترف بقيمة اخيه التونسى وان التونسى لا يؤمن بمقدرته ولا يكبر الا عمل الاجنبى ولا يقر بفضل لابن جلدته ولو كان يدعى ابن خلدون ولو كان صاحب كتاب العبر ومقدمته الفريدة فى نوعها . فنحن والحق يقال :

امة قد فت فى ساعدها   بغضها الاهل وحب الغرباء

***

ولنلتحق الان بابن خلدون فى منفاه الاختيارى بالقاهرة لنراه مكرما متوج الرأس باكاليل التعظيم والاجلال فى تلك العاصمة الزاهرة التى اسسها ابناء بلاده والتى وصفها بقوله انها « حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكرسى الملك » وقد سبقته اليها شهرته وشهرة مقدمته وانتشرت نسخ تاليفه فى التاريخ فنرى العلماء والطلاب يقبلون على طريد تونس من كل صوب . فيقول صاحب المنهل الصافى : «واستوطن القاهرة وتصدى للاقراء بالجامع الازهر مدة واشتغل وافاد » فكانت نتيجة اقامته بالقاهرة ان انجب افذاذا امثال تقى الدين المقريزى الذى حفظ وده وقدر حقه عليه والحافظ بن حجر الذى طغت عليه العنصرية الفرعونية فاصبح من اشد خصومه .

ثم سمى مدرسا بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص وهو من منبته كما ذكرنا ثم عين بعد سنتين من حلوله بمصر قاضيا لقضاة المالكية فى اواخر جمادى الثانية سنة ٨٧٦ اوت ١٣٨٤ م. وشغل هذه الخطة ست مرات فى بحر الاربع والعشرين سنة التى قضاها بالقاهرة من تاريخ هجرته الى وفاته. ويقول صاحب المنهل الصافى انه « باشر القضاء وبحرمة وافرة

وعظمة زائدة وحمدت سيرته ودفع رسائل اكابر الدولة وشفاعات الاعيان فأخذوا فى التكلم فى امره »

فان يكن آكابر الـدولة واعيـان القوم من معاصريـه قد احتدوا عليه من صلابة موقفه معهم فهذا أمر طبيعى وان كـانوا غير محقين فى سلوكهم ولكن الامر الذى تعجبنـا منه كثيرا هو ما أبداه الاستاذ محمد عبد الله عنـان من الرأى فى ولايـة ابن خلدون لخطة القضاء . فالاستاذ يقول : «ونستطيـع أن نقرر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن حادثا عاديـا . فقـد كان أجنبيا، وكان تقدمه فى خطوة السلطان وفى نيل المناصب سريعا وكانت مناصب التدريس والقضاء دائمـا مطمح جمـرة الفقهاء والعلماء المحليين ولم يكن مما يحس وقعه لديهـم أن يفوز بهـا الاجانب الوافدون دونهم. واذا فقد تولى العلامة المغربى منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد .»

فيظهر جيدا من هذا التصريح الغريب أن الاستاذ عنـان قد ارتكب الهفوة التى حذرنا منهـا ابن خلـدون وهى قـوله : « ربما يسمع السامع كثيرا من أخبار الماضى ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابهـا فيجريها لاول وهلـة على ما عرف ، ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهمـا كثيـرا فيقـع فى مهواة من الغلط .»

فكيف يعتبر الاستاذ عنان ابن خلدون أجنبيا فى مصر فى القرن الثامن ؟ وابن خلدون مسلم العقيدة عربى المنبت ، عربى اللغة والبلاد الاسلامية قاطبة عندئذ موطن وموطىء لكل من كان يتمتع بهذه الصفات ؟

وهل يعتبر أجنبيا فى أى بلاد ذاك الذى بلغ الدرجة التى بلغها ابن خلدون من العلم والادب ؟

وهل كان فى ذلك العهد بالقاهرة من يعادل ابن خلدون فى مكانته العلمية حتى يقف منه وقفة الند للند وتثير ولايته حسد الفقهاء والعلماء المحليين ؟ فقد عودتنا ارض الكنانة بتبنى العلماء والادباء وبانتسابهم اليها ولو كانوا غرباء عنها وعليه فان السلطان الظاهر برقوق قد ابدى سداد نظر يشكر عليه وقد احسن الى بلاده واهل مملكته فى اختيار هذا العلامة الذى «وفى جهده بما امنه عليه من احكام الله لا تاخذه فى الله لومة والذى سوى بين الخصمين آخذا بحق الضعيف من الحكمين معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين جانحا الى التثبت فى سماع البينات والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات » ويزيد ابن خلدون قائلا : « فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر والطيب متلبسا بالخبيث والحكام ممسكون عن انتقادهم متجاوزون عما يظهر عليهم من صفاتهم لما يموهون به من الاعتصام باهل الشوكة

فان غالبهم مختلطون بالامراء معلمون للقرآن وائمة للصلوات يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ويقسمون لهم الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم فاعضل داؤهم وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ومؤلم النكال ... »

وبالرغم من هذه الصفات التى تجمعت فى ابن خلدون فكان بفضلها رمز العدالة والصدق والنزاهة فان عالمنا لم يكن فى مامن من حسد الفقهاء ودسائسهم . فراى نفسه يبعد خمس مرات عن خطة القضاء فى بحر الاربع والعشرين سنة التى قضاها بارض الكنانة

بيد ان اجلال الملك لهذا الرجل واعجابه بواسع خبرته وغزير علمه جعله يقربه اليه كى تزدان به اجتماعاته واسماره حتى انه لما هيأ العدة وقصد بلاد الشام محاولا رد زحف التتار طلب منه ان يصاحبه . فكانت تلك الرحلة فرصة ثمينة انتهزها مؤرخنا للاتصال بالفاتح الكبير تيمورلنك . فاحسن الفاتح وفادته وعامله معاملة العلماء الاجلاء واسترشده عن احوال بلاد المغرب فامده بارشادات لم يكن غيره قادرا على امداده بها

ثم رجع ابن خلدون الى القاهرة وعاد لخطة القضاء واستمر يبعد عنها او يرجع اليها الى ان وافاه الاجل فى السادس

والعشرين من رمضان لسنة ثمان وثمانمائة ـ ١٦ مارس ١٤٠٦ وهو قاض للمالكية فى الثامنة والسبعين من عمره ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر وهى مقبرة العلماء غير ان قبره تلف ولم يعثر عليه بعد

وقد مات ابن خلدون بالقاهرة غريبا لانه لما قرر البقاء بارض الكنانة بعث فى طلب عائلتـه من تونس وفى الطريـق غرقت السفينة فهلك الاهل والولد والمتـاع » . ولكن الـرجل الـذى قضى اربعا وعشريـن سنة بـارض عربية اسلاميـة فى تكوين طبقات من العلماء والادبـاء وفى رفع المظالم لم يكـن فى الحقيقة يشعر بالغربة ولا بفراغ الدنيا من حوله

فتلك كانت حياة ابن خلدون . حياة علم ودراسة ، حياة طموح وكفاح ومغامرات وتطورات ونكبات، حيـاة علم ودرس وانتاج ، حياة علم وقضـاء . فلننظر الان فى هذا الانتـاج وما يمتاز به فيه صاحبنا عن سواه من المؤرخين والفلاسفة والكتاب.

واذا اعتمدنـا فى القسم الاول من هذه الدراسة كتـاب التعريف لابن خلدون نفسه ، ودراسة الاستـاذ محمد عبد الله عنـان فى ابن خلـدون ، وما كتبـه فيـه الاستـاذ فـؤاد فرام البستانى ، فانا سوف نستعين فى القسم الثانى منهـا بكتـاب الاستاذ الكبيـر ساطع الحصرى ، وبكتاب الاستـاذ الدكتـور

قاسطون بوتول ، الاخصائى فى علم الاجتماع وبالاخص بالفصل المتع الذى صدر به النشرة الاخيرة من ترجمة البارون دوسلان لمقدمة ابن خلدون ·

يقول الاستاذ بوتول : « ترك لنا ابن خلدون تاليفا ضخما فى التاريخ ، يتركب من قسمين · قسم يتناول فيه التاريخ العام ، وقسم خاص بتاريخ المغرب · واضعف ما فى هذا التاليف هو القسم المتعلق بتاريخ المغرب القديم · فيظهر ان ابن خلدون لم يعتن عناية كاملة بدراسة التاريخ فى اطواره قبل الفتح الاسلامى ولم يتفهم جيدا الى نظام الدول القديمة التى تداولت على بلاده ولم يتصور حقيقة ما كانت تراتيب جمهورية قرطاجنة ولا الامبراطورية الرومانية » ويقول : « وقد خلط بصورة غريبة فى هذا القسم من التاريخ بين الحوادث التاريخية الحقيقية والخرافات الجارية بين قبائل البدو فذهب يقول : ان الهياكل الرومانية العظيمة المنتشرة فى جميع انحاء بلاد المغرب انما هى من بناء الجنون ، فخبرته ضعيفة بكل ما كان خارجا عن العالم الاسلامى ، وبالمدنيات التى سبقت المدنية الاسلامية · ونراه يعلن احتقاره لكل هذه المدنيات فى كثير من المناسبات لانه يعتبر ان الحياة ابتدات فعلا بظهور الاسلام وان كل ما كان سابقا لهذا العهد انما هو عهد ظلمات يجدر اهماله اذ لا فائدة معرفته · »

لقد سلك الاستاذ بوتول فى دراسته لابن خلدون طريقة النقد الشائعة بين الكتاب والمدرسين ، وهى طريقة الابتداء بذكر النقائص والاغلاط عندما تكون نية الناقد التنويه بموضوع الدراسة والاطناب بما فيه من محاسن وكمالات ـ كما هى صورة الحال ـ او الابتداء بالمحاسن اذا نوى الناقد التشويه بذلك الموضوع وجعل مساويه تتفوق على محاسنه ٠ فشرع اذن الاستاذ بوتول فى ذكر ما كان فى نظره نقط نقص او ضعف فى تاريخ ابن خلدون لانه لم يضن فيما بعد بالاعجاب بتراث صاحبنا وبوضعه فى رتبة ممتازة بسلم المفكرين العالميين ٠

غير انه استعمل عبارات نراها جارحة بالنسبة لرجل فى مقام ابن خلدون وابدى ملاحظات لا نخالها فى محلها ٠ فهو يرمى « بالضعف » قسما من هذا التاليف لانه لم يجد فيه من التبسط ما تعود ان يجده فى التاليف الاروبية فيما يتعلق بتاريخ اليونانيين والرومانيين وغيرهم كما أنه لم يجد من طرف ابن خلدون ما يدل على اعجابه بتلك الحضارات والمدنيات ٠ وقد تعجب من ذلك ٠

ولربما غاب عن ذهن الاستاذ ان ابن خلدون تناول هذا القسم من التاريخ بصورة عامة وقد اقتصر على ذكره والتعليق على قليل من نواحيه ولم ير فيه الا شبه مقدمة لتاريخ المغرب العربى الذى كان بيت القصيد بالنسبة اليه ٠

ثم ان الاستاذ لم يهتد الى فهم لفظة « جنون بالمعنى الذى يعطيه لها ابن خلدون اى « العباقرة » كما لم يفهم غيره لفظة « العرب » بالمعنى الذى اراده ابن خلدون . فراح يقيس تفكير الفيلسوف الكبير على عقلية البدو المعاصرين الذين اختلطت لديهم العقائد بالخرافات . فاعمال العقلاء تصان عن العبث وليس من المعقول اصلا ان نضع ابن خلدون فى صف من يعتقدون ان البناءات الضخمة التى نشاهد اليوم اطلالها هى من صنع الجنون .

ومن جهة اخرى فان خبرة ابن خلدون لم تكن « ضعيفة بكل ما كان خارجا عن العالم الاسلامى » كما يدعى الاستاذ بوتول ، اذ انه كثيرا ما ذكر هرشيوش فى سياق حديثه . وما هرشيوش هذا الا بولوس هوروسيوس المؤرخ الاسبانى الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى والف كتابا ضخما فى التاريخ عرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . والى جانب هوروسيوس فقد اعتمد ابن خلدون فى نقل روايته عن اليونانيين والرومانيين على ابن العميد وهو من اصح المراجع فى هذا الموضوع .

واما اعلان الاحتقار ازاء المدنيات القديمة فتلك وجهة نظر مؤرخنا وله ان يناقشه فيها .

X

وينتقل الاستاذ بوتول بعد هذا النقد الافتتاحى الى الاعتراف بفضل ابن خلدون والاطناب بمؤلفه فيقول : «والقسم

الخاص بتاريخ المغرب العربي هو اهم ما في تاليف ابن خلدون . فهو المؤلف الوحيد الذي سجل عن خبرة وبدقة ووضوح جميع الحوادث التي جرت بالمغرب من عهد انجلاء البيزنتيين واستقرار العرب الى ما يقرب من تاريخ وفاته . » ويقول قوتيه : « لولا ابن خلدون لجهلنا كل ما يتعلق بالشمال الافريقي طيلة القرون الوسطى . » وفي هذا العمل كفاية ليكتسب تاريخ ابن خلدون اهمية كبرى » . ومما يزيد في هذه الاهمية هو ان ابن خلدون شرع في تاليفه بقلعة ابن سلامة ، بعد انتهائه من كتابة المقدمة وعلى اثر انتهاء المرحلة الثانية من مراحل حياته اي بعد ما خاض غمار الحياة السياسية على الصورة التي تقدم ذكرها وشارك فيها مشاركة مباشرة اكثر من خمس وعشرين سنة ، فكانت خبرته كبيرة بالاشخاص والاشياء والاماكن .

ولا شك في ان نية ابن خلدون كانت في اول الامر الاكتفاء بكتابة تاريخ البربر اذ يقر بانه تعوزه المعلومات فيما يتعلق بامم الشرق . ولذا يرى الاستاذ بوتول ان « في تاليف المقدمة وتاريخ البربر في مدة واحدة ، دليلا على ان غالب النظريات التي جاءت في المقدمة هي عبارة عن النزعات التي تبدو بصورة قارة في حوادث المغرب . »

« ومما يجدر ملاحظته هو ان ابن خلدون لم يطبق فى كتابة تاريخه مبادىء الطريقة التى ابتكرها لكتابة التاريخ فكان مؤلفه على غرار ما سبقه من كتب التاريخ اى ذكرا مجردا للحوادث. »

« غير ان هذه التعاليق التى اهملها ابن خلدون فى تاريخه قد جمعها فى مقدمة كتابه واخرج منها طريقة . لان هذه المقدمة هى خلاصة معلومات ابن خلدون ونتيجة خبرته الواسعة . فهى تجمع بين ثقافته الفلسفية من جهة وثقافته التاريخية وخبرته السياسة وغزارة علومه الفقهية من جهة اخرى . لان ابن خلدون كان فيلسوفا وفقيها مثل غيره من علماء عصره . »

« فقد كتب فيما كتب وضاع ، تعليقا على مؤلفات ابن رشد وبالرغم من انه ينفى نفيا باتا فضل الفلاسفة عليه ، وبالرغم من قساوة حكمه على ابن رشد كلما جاء ذكره ، فان لهذا الفيلسوف الكبير شيئا من التاثير عليه ، ولو كان ذلك التاثير معاكسا وداعيا لاعتراضاته واحتجاجاته. »

« وعلى كل فان موقف ابن اخلدون من التاريخ ونظره الى الحوادث بعين الدرس والتجرد ، ليس هو الا طريقة التبصر والامعان العجيبة التى اتبعها علماء العرب فى العلوم الطبيعية وعلم الفلك والفيزيا وغيرها من العلوم . فهو يتصل حينئذ

اتصالا متينا بعلماء العرب بالرغم من انكاره ، وما هو الا الحلقة الاخيرة من تلك السلسلة الطويلة » التى ابهرت العالم وقامت المدنية الحديثة على اركانها

هذا من الناحية الفلسفية والعلمية · اما من الناحية الدينية » فقد تناول ابن خلدون كثيرا من المواضيع التى وقف منها الفقهاء والعلماء موقفا نهائيا مدققا ولكن موقفه لم يكن موافقا لموقفهم · فقد اول تلك المواضيع تاويلا يبعد بعدا محسوسا عن راى العلماء فيه ويناقضه احيانا كل التناقض غير انه بذل كل ما لديه من عناية واجتهاد لاجتناب مصادمة العلماء بصورة علنية مباشرة · فابن خلدون يعلل الفتح الاسلامى بدواع واسباب مادية · فهذا الفتح هو فى نظره نتيجة مقتضيات اجتماعية يحللها تحليلا مفصلا بدون ان يتعرض للعوامل والدواعى الدينية التى يعلل بها العلماء والفقهاء هذا الفتح · »

ويظهر لنا ان تحرى ابن خلدون فى اجتناب اثارة غضب العلماء والفقهاء عليه يرجع الى سببين اولهما انه اراد البحث فى موضوعه من ناحيته الاجتماعية والمادية · فلم ير فائدة فى التعرض اليه من الناحية المطروقة التى اتبعها الفقهاء والعلماء ، وثانيهما انه اراد ان يجتنب زوبعة تؤول به الى ما كان من امر صديقه لسان الدين بن الخطيب فتراه يسلم مبدئيا ، وبدون

جدال بصحة جميع المبادىء الدينية · وهكذا يجد لنفسه اكثر حرية لطرق المواضيع التى يريد درسها بصرف النظر عن النواحى التى تتصل بالدين ·

ويقول بوتول : « فهذا الموقف يذكرنا لا محالة موقف ديكارت ومونتانى لان ابن خلدون يجتنب فيه مثل الاول كل نقد او جدال ازاء المبادىء الدينية ولانه يبتدىء تاليفه مثل الثانى ، بالمصادقة على كل ما جاء به الدين ، وذلك اجتنابا لكل تهمة بالكفر او الزندقة · وهى تهمة خطيرة على صاحبها فى مثل ذلك العصر ·

« ونظريات ابن خلدون الفلسفية بينة واضحة · فهو قبل كل شىء متشاؤم · الا انه لا يركز تشاؤمه على اسباب فلسفية بل على مقتضيات تاريخية واجتماعية · ويظهر ان الاراء والنظريات التى عرضها بالمقدمة تنم عن استنكاف ابن خلدون للفلسفة الاتباعية كما عرفها · فهو يرى ان هذه الفلسفة عقيمة فى نتائجها وانها لا توفى بوعودها وانه من الاحرى بالانسان ان يعرض عنها وان يغير وجهة نظره· »

ورأينا أن النزعة التشاؤمية قلما تكون خلقية فى الانسان وانما هى وليدة ظروف وحوادث تعترضه فى حياته الداخلية فتثنيها عن المسلك الذى كان يود أن تسير فيه أو فى حياته

Pessimiste

الخارجية فتحدث فى الوسط الذى يعيش فيه تغيرات وانقلابات لا تتفق وما يراه صالحا لذلك المجتمع ويرى نفسه عاجزا عن صدها أو مقاومتها . فيشعر بسوء المصير هنا وبالخيبة هناك . وتلك هى صورة الحال بالنسبة لابن خلدون . فلا يمكن ان نتصوره الا متفائلا لما ترك ابن تافراكين وقصد المغرب باحثا عن السمعة والنفوذ والرآسة . وقد راينا كيف خاض غمار الحياة السياسية مملوءا بالامال ومدفوعا بفورة الشباب ، وكيف خرج منها طريدا ذليلا لم ينل منها الا الندم والحسرات . ومن جهة اخرى فقد احس بان تلك الاضطرابات والمنافسات والانقلابات « التى اهتزت لها عروش المغرب » كانت لا محالة سائرة بهذه الرقعة من الارض نحو زيادة الضعف وسرعة الانحطاط . فهذه الخيبة التى تذوق الى مرارتها ، وهذه الحالة التى كان يشاهدها ، لم يتنح اثرها من نفسه لما انقطع للتاليف بقلعة ابن سلامة . فجاء عمله مكسوا بهذه المسحة من التشاؤم ومن هو الكاتب او المفكر او السياسى الذى لا ينطبع بطابع التشاؤم اذا ما قرأ كتاب الحياة وتطلع الى ما فيها من مصاعب ومعاكسات وقليل السرور وكثرة النكبات ؟

« فان ابن خلدون هو اول من قال : « لقد حان للانسان ان ينظر الى حقائق الاشياء وجها لوجه ، وان يوجه عنايته اولا وبالذات للبحث فى نفسه وفى المجتمع الذى يعيش فيه » وهذا

ما ينم عن نضج فى التفكير يوافقه انشاء علم الاجتماع · وهو فى نفس الوقت نوع من الجراة فى تحريض الناس كى لا يشبعوا انفسهم بالاوهام عن حقيقتهم وحقيقة رؤسائهم،واولى الامر منهم وملوكهم ، ومدنهم · وهذه الجراة تسمى بالتجرد فى ميدان التفكير · وان نحن لم نجد عند ابن خلدون قواعد وطرقا وتجاريب مدققة تتقدم بها هذه النظرة الجديدة فى المجتمعات ، فانا نستطيع ان نقول مع مونيه :

«ان لابن خلدون شعورا بالنقد النزيه وبالطريقة الا جابية ··· وان هذا لدليل على تحريه فى ملازمة التجرد فى حكمه، وهو تقدم ذو بال بالنسبة لعصره » ·

وقد وزع ابن خلدون آراءه ونظرياته الجديدة فى المجتمع فى كامل فصول الجزء الاول من مؤلفه فى التاريخ والمعروف بالمقدمة · فلا باس اذن من جمعها وايضاحها :

« يعلق ابن خلدون اهمية كبرى على الحالة المادية التى تعيش عليها المجتمعات ، باعتبار الطقس ، وطبيعة الارض ، والصناعات واساليب الحياة · فهو سابق لمونتاسكيو فيما يخص اهمية تاثير الطقس كما هو سابق لفلاسفة عصرنا هذا فيما يتعلق بتبادل التاثيرات بين النظام الاجتماعى والعوامل المادية· فقد حلل ابن خلدون تحليلا عجيبا تبادل التاثير بين هذه العوامل المختلفة المتباينة لما تناول بالدرس احوال القبائل

المتنقلة وحياتها . فبعد تحليله لنفسية الرحل ، وتفسيره لفكرة التضامن المتين السائدة بينهم ولتعلقهم بالاسرة والعشيرة ولشجاعتهم وصبرهم واستماتتهم في تحمل المشاق والاتعاب الجسمية ، وهي صفات تحتمها تلك الحياة القاسية الملاى بالاخطار التي يعيشونها بعد هذا التحليل والتفسير ، يبين لنا كيف تتغير هذه الطباع بتغير تلك الحياة ، وكيف يستأنس هؤلاء البدو حياة اهل المدن وطباعهم ، بما فيها من مليح ومن قبيح ، اذا ما اتيح لهم صحيح الوصول الى الاخذ بمقاليد الامور بفضل تلك الصفات البدوية وبفضل ما اوتوا من ميزات في الحرب. »

« وهكذا يقيم لنا ابن خلدون الدليل على انه غير مؤمن بتاصل الطباع الراجعة لمنبت الناس ، بل يظهر بالعكس من نظريته هذه انه يسلم بمرونة في نفسية الانسان تجعل سلوكه وطباعه تتكيف بتكيف الطقس واساليب الحياة والتربية. »

وتكيف الطقس واساليب الحياة تتحكم في تكوين الانسان المادي من حيث قوته او ضعفه ومن حيث درجة مقدرته على تحمل الاتعاب ومقاومة الشدائد ، واما التربية فانها تهيئه للحياة في المجتمع الانساني . وعبارة التربية جامعة لكل ما يجب على الانسان اكتسابه من اخلاق فاضلة ، ومن علم وثقافة يحقق بها منزلته في ذلك المجتمع . فلا يجب حينئذ على الانسان ان يكتفي باعتزازه بشرف نسبه ، او علو منبته ليعتبر نفسه متفوقا على

غيره من البشر بل يجب عليه ان يبرز بتربيته ما لذلك المنبت من عزة وكرامة وقد صدق من قال :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

« وهناك خاصية اخرى تمس بعلم الاجتماع وهي ان ابن خلدون يحاول تفسير الحوادث التاريخية بدون ان يكون للاشخاص اى دخل فيها . وهذا دليل على ان الشخص ليس هو فى نظره الا نتيجة او ضاع الحياة . »

فان ما تنتجه امة من قادة وزعماء . هو . حسب هذه النظرية ، نتيجة الروح التى يكونها الطقس واساليب الحياة والتربية ، والظروف العرضية فى تلك الامة . وهو لسان حالها والمعبر عن نفسيتها وحاجيتها . فهى لعمرى نظرية على غاية من الصدق والوجاهة ، لان الامم لا تخضع الا لنظام يتمشى وطبيعتها وماهيتها وخلقها ويسير بها نحو السعادة والرقى فى دائرة تلك الطبيعة والماهية والخلق ، واما التيارات الخارقة التى يسمونها بالتجديدية ، والتى تريد قلب العقائد والتقاليد والعادات راسا عن عقب ، فان مصيرها الخيبة والاخفاق لا محالة .

« وعندما يبدى ابن خلدون قاعدته القائلة بان الصفات اللازمة للاستيلاء على الحكم والمحافظة عليه تتوارى حتما بعد اربعة اجيال . فانه لا يدخله الشك فى صحة تلك القاعدة مهما كان جنس المجتمع ومهما كان مكانه . »

«ويصرح ابن خلدون فى ابدائه هذهالنظريات بانه لايعتمد فى تاويله الحوادث التاريخيــة ، الا على الوثــائق المستخرجة من طبيعة الاشياء . »

ولقد كان ابن خلدون صادقــا فى قوله عندما قــال ان هذا العلم لم يسبقه اليه احد . فان جميع المساعى التى بذلها دارسو المقدمة . من عرب ومستشرقين فى البحــث عن مصادر او مراجع يكون ابن خلدون قد استقى منها مواضيع مقدمته لم تات بنتيجة لان ابن خلدون لم يعتمد على ما سبقه فى هذا الميــدان سواء من المدنيات القديمة او من العرب نفسهم ولم يتخذ منه اى منهج فى انشاء علمه الجديد او تسطير طريقته الجديدة فى كتابة التاريخ .

— فانه لا يوجد اى وجه شبه بين المجتمعات كما تصورها ابن خلدون ووضعها ، وكما تصورها ووضعها ارسطو وافلاطون مثلا . فان هذين الفيلسوفين العظيمين ركــزا نظرياتهمــا على المجتمع اليونانى وهو مجتمع تمتــع دائما بنظام جمهــورى ولم يخضــع للحكم الفردى الا بصورة عرضية وفى فتــرات قصيرة من تاريخه . اما مجتمع ابن خلدون فهو قائم على السنة المتبعة فى الشرق وهى انالدول خاضعة دائما للحكــم الفردى المطلق ، كبيرة كــانت او صغيرة . واذا تحدث عن استيلاء على الحكم او ضياعه ، فانه يقصد دائما صعود دولة او انهيار دولة من ذوى السلطة المطلقــة . اما النظــام الديموقراطى فانــه لا يذكره الا عند القبائل النــائنة ،

البعيدة عن المدنية والتى امنت على نفسها من كل ضغط وجبروت بفضل طريقتها فى الحياة وانتقالها المستمر . وهذا الاستقلال ، وهذه النخوة، هما اللذان اكسبا القبائل روح التضامن والعصبية. لكن هذه الروح تزول اذا ما ظفرت قبيلة بالحكم والتسيطر لانها تخضع لناموس سابقاتها من الدول وتتكون فيها روح سابقاتها. وبعد هاتين النظريتين عن بعضهما غنى عن كل دليل

واما الفلاسفة والكتاب من العرب الذين تناولوا هذا الموضوع من بعض نواحيه، فعددهم كثير وقد ذكرهم ابن خلدون فهذا ابن قتيبة الذى خصص بابا من كتاب « عيون الاخبار » سماه « كتاب السلطان » ذكر فيه الميزات التى يجب ان يمتاز بها السلطان . وهو « مجموعة من الاقوال والحكم المأثورة »... اقرب الى النصح والموعظة منه الى العرض والشرح » وهذا الفيلسوف ابو نصر الفارابى ، يمس فى مباحثه موضوع المجتمع والاجتماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث فى كتابه « مبادىء آراء اهل المدينة الفاضلة » عن حاجة الانسان الى الاجتماع والتعاون وعن نشأة القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة » . وهذه رسائل « اخوان الصفا » الفلسفية ، تتناول بصورة عرضية الكلام عن بعض الموضوعات السياسية والاجتماعية. وهذا كتاب « الاحكام السلطانية » لابى الحسن الماوردى وهو يتحدث فيه عن الامامة وشروطها وعن الامارة والوزارة والقضاء وشروط كل من

هذه المناصب من الناحية الفقهية على المذهب الشافعي وهذا كتاب « سراج الملوك » لابى بكر الطرطوشي • فقد تناول فيه هذه المواضيع من الناحية الاخلاقية والفلسفية •

فيقول ابن خلدون في هذه الكتب « ان في كتاب « السياسة » لارسطو جزءا صالحا من موضوع علمه الا انه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين • وكذا في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنها • ويصارحنا بان الطرطوشي « قد حوم في كتاب سراج الملوك وبوبه على ابواب تقرب من ابواب كتابه ومسائله ••• لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا اصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا اوضح الادلة ، انما يبوب الباب للمسالة ثم يستكثر من الاحاديث والاثار••• وكانه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده »

فابن خلدون ان طرق نفس المواضيع فانه سلك مذهبا اجتماعيا بحتا يؤيد قوله انه علم جديد لم يسبقه اليه احد

« فمقدمة ابن خلدون هي اولا وبالذات محاولة ناجحة لانشاء علم الاجتماع ولابتكار طريقة جديدة في النقد التاريخي فهو يحمل حملة عنيفة على طريقة قدماء المؤرخين من العرب في الحوادث والوقائع التاريخية والخرافات بدون اى تمييز ، وفي سعيهم وراء اظهار سعة اطلاعهم وغزارة معلوماتهم• »

فحقيقة التاريخ ، حسب ابن خلدون ، هى ، انه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم . وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال ، مثل التوحش ، والتانس ، والعصبيات ، واصناف التغلب للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك ، والدول ، ومراتبها ، وما ينتحله البشر باعمالهم ومساعيهم من الكسب ، والمعاش ، والعلوم ، والصنائع، وسائر ما يحدث فى ذلك العمران بطبيعة الاحوال »

ويقول الاستاذ ساطع الحصرى مفسرا لهذا التحديد لمعنى التاريخ «ان موضوع التاريخ فى نظر ابن خلدون، واسع جدا، وهو لا ينحصر بما حدث من الفتوحات والحروب، وما توالى من الدول والملوك فى الازمنة الغابرة ، بل يشمل كل ما حدث من التحول فى الحياة الاجتماعية على اختلاف مظاهرها، وفى المؤسسات الاجتماعية على اختلاف انواعها. فان الاخبار المتعلقة بالاحوال الاقتصادية والصنائع، والعلوم ايضا تدخل فى نطاق موضوع التاريخ فابن خلدون يتفوق بنظريته هذه على جميع المؤرخين الذين سبقوه» لا فى الشرق فقط . كما يبدو من كلام المستشرقين . بل وحتى فى الغرب ايضا « بوجه عام ، وعلى جميع الذين اتوا بعده خلال اربعة قرون على اقل تقدير »

« وهذه النظرة الشاملة ، المتوسعة ، هى ما يسمى الان بتاريخ الحضارة »

ويقول ابن خلدون : « ان فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الامم والاجيال ، وتشد اليه الركائب والرحال ، وتسمو الى معرفته السوقة والاغفال ، وتتنافس فيه الملوك والاقيال . اذ هو فى ظاهره لا يزيد على الاخبار عن الايام والدول، والسوابق من القرون الاول . ينمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية اذا غصها الاحتفال ، وتؤدى لنا شان الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال ، واتسع فيها للدول النطاق والمجال ، وعمروا الارض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وجدير بان يعد من علومها خليق . »

والنظر الى التاريخ بهذا المنهج الجديد يقتضى اولا «تمحيص الاخبار » ثانيا « تعليل الوقائع » .

فتمحيص الاخبار « لتمييز الحق من الباطل ، والصدق من الكذب فيها ، وللتاكد من مطابقتها للواقع . لان الغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل ، ولان الاخبار والحكايات مظنة الكذب ، ومطية الهذر ، ولان الكذب متطرق للخبر بطبيعته »

ويذكر ابن خلدون الاسباب الداعية للكذب فيقول : « فمنها التشيعات للاراء والمذاهب . فان النفس اذا كانت فى حالة الاعتدال فى قبول الخبر اعطته حقه من التمحيص والنظر ،

حتى تتبين صدقه من كذبه . واذا خامرها تشيع لرای او نحلة ، قبلت ما يوافقها من الاخبار لاول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها من الانتقاد والتمحيص، فتقع فى قبول الكذب ونقله »

« ومنها الثقة بالناقلين ، وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح »

« ومنها الذهول عن المقاصد . فكثير من الناقلين لا يعرف القصد بما عاين او سمع ، وينقل الخبر على ما فى ظنه وتخمينه . فيقع فى الكذب »

« ومنها توهم الصدق ، وهو كثير وانما يجىء فى الاكثر من جهة الثقة بالناقلين »

« ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع ، لاجل ما يداخلها من التلبيس والتنطع على غير الحق فى نفسه »

« ومنها تقرب الناس فى الاكثر لاصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال ، واشاعة الذكر بذلك . فيستفيض الاخبار بها على غير حقيقة . فالنفوس مولعة بحب الثناء ، والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة ، وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضائل ، ولا متنافسين فى اهلها،

« ومن الاسباب المقتضية له ايضا ، وهى سابقة على كل ما تقدم ، الجهل بطبائع الاحوال فى العمران • فان كل حادث من الحوادث ، ذاتا كان او فعلا ، لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته ، وفيما يعرض له من احواله • فاذا كان السامع عارفا بطبيعة الحوادث والاحوال فى الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب • وهذا ابلغ فى التمحيص من كل شىء يعرض •

تلك هى الاسباب الداعية للكذب فى نظر ابن خلدون، ولو اردنا تفسيرها وشرحها بامثلة تنطبق على كل صورة من الصور ، لذهبنا فى الكلام طويلا لان فيها وحدها موضوعا لمحاضرة كاملة • فلنكتف اذن ببعض البيانات ، ولنلفت اولا نظركم الى ان ابن خلدون يقصد بعبارة « الكذب » ما كان باطلا وغير صحيح كما انه يقصد بعبارة « الجنون » فى حديثه عن بقايا المعالم الرومانية والبيزنطية اناسا غباقرة ، غير عاديين ، وكما يقصد بعبارة «العرب» الاعراب اى سكان البادية وخصوصا اولئك الذين بعث بهم الوزير الفاطمى ابو الحسن البازورى من صعيد مصر لينتقم من المعز بن باديس فكانت الزحفة الهلالية المشهورة.

ويذكر لنا الاستاذ ساطع الحصرى ، فى كتابه عن مقدمة ابن خلدون ، ما نشا ببلاد العراق بسبب فهم هذه العبارة ، اى

العرب ، فهما معكوسا • فقد ثارت ثائرة الحكومة العراقية ضد مؤلفنا ، فامرت باحراق مؤلفاته • فاضطر الاستاذ الحصرى الى القيام بحملة ضد هذا الصنيع افهمهم فيها قصد ابن خلدون من هذه العبارة •

ومن الاسباب التى ذكرها ابن خلدون ما يكون فيها الكذب مقصودا سواء اكان ذلك من قبيل التحامل او التملق او النيل من كرامة شخصية او شرفها ، ومنها ما يكون غير مقصود كالثقة بالناقل او الجهل بتطبيق الاحوال على الواقع او الجهل بطبائع الاحوال فى العمران •

ويسطر لنا ابن خلدون الخطة التى يجب اتباعها للتمييز بين الصحيح والباطل من الاخبار فيقول انه يجب النظر فى مبلغ صدق الرواة وامانتهم من جهة ، والتفكير فى درجة امكان الوقائع من جهة اخرى •

فاما صدق الرواة ، فان النظر فيه يقع «بالتجريح والتعديل» وهى الطريقة المتبعة لدى علماء التفسير ونقلة الحديث • واما درجة امكان الوقائع المروية فانها تقوم على علم العمران •

فيقول ابن خلدون : « انما كان التعديل والتجريح هو المعتبر فى صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية ،

اوجب الشارع العمل بها ٠ متى حصل الظن بصدقها ، وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط »

واما الاخبار عن الواقعات فلا بد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة ٠ ولذلك وجب ان ينظر فى امكان وقوعه ٠ وصار فيها ذلك اهم من التعديل ومقدما عليه ٠

هذا فيما يخص التمحيص ٠ واما تعليل الوقائع ، فهو فى نظر ابن خلدون من اهم واجبات المؤرخين ٠ بيد ان لم يسن له قواعد تضبطه ٠

فهذه الطريقة فى كتابة التاريخ ونقده هى التى اصبح معمولا بها فى هذا العصر مع توسع كبير فى المصادر التاريخية بفضل ما اعادته الحفريات على وجه الارض من آثار العصور الغابرة فى جميع انحاء العالم فادخلت به تغييرا كبيرا على النظريات التاريخية القديمة واصبحت المرجع الاول لدراسة التاريخ بصورة جدية صحيحة ٠

والنقد التاريخى ، حسب التعريف العصرى ، هو ضبط العلائق بين المواد والمراجع التاريخية الموجودة تحت طلب الباحث وتصرفه ، وبين الحوادث التى يمكن ان تتاتى معرفتها من هذه المواد والمراجع ٠

وتختلف اساليب النقد التاريخي باختلاف المواد والاشياء التى يبحث فيها المؤلف ، ولكنها تعتمد دائما اجراء عمليتين • العملية الاولى هى ضبط قيمة المراجع ، والعملية الثانية هى تاويل تلك المراجع ، معناه ، بلغة ابن خلدون « التمحيص والتعليل »•

ومعرفة التاريخ تكتسب من الاثار التى خلفتها الحوادث والوقائع والمدنيات• فمنها الاثار المادية ، كبقايا الهياكل والمعالم وادوات الاشغال اليومية ، والاسلحة، والاعمال الصناعية والفنية ومنها الاثار الخلقية كاللغات، واللهجات، والعقائد والتقاليد، والعادات ، والحكايات المنقولة ، ومنها الوثائق الكتابية على اختلاف انواعها من ادب ونقائش ، وعقود ووصفيات ، وذكريات وتعاريف ، ومراسلات • فيتناول الباحث نقد كل واحدة منها بالطريقة الخاصة بها ، فيضبط اصلها ومرجعها باكثر ما يمكن من الدقة ، ويرجعها الى زمانها ومكانها ، ويعيد بقدر الامكان الى اصلها الوثائق التى تاثرت بمر الايام ، ويقدر قيمتها واهميتها ثم ينظمها باعتبار كل واحدة منها بالنسبة لموضوع بحثه ودراسته، ويتحقق من صحتها بطريقة المقارنة بينها، ثم يجمعها وينسق بينها بعمليات متوالية او متماشية ، وبهذه الصورة يتوصل الى ربط العلائق الموجودة بين تلك المواد والحقائق التاريخية •

فاذا قارنا بين هذا التحديد وتحديد ابن خلدون تبين لنا بوضوح ان فيلسوفنا رمى لنفس الغاية وابدى نفس الطريقةوانه هو اول من انشأ علم الاجتماع وجعله المرجع الاول لمعرفة التاريخ ودراسته درسا صحيحا مدققا .

فعلم الاجتماع ، في نظر ابن خلدون ، وباعتبار الاوساط التي تعرف اليها معرفة جيدة ، هو البحث في العمران البشري بصورة عامة ، واصنافه ، وفي العمران البدوي ، وذكر الامم والقبائل الوحشية ، وفي الدول والخلافة والملك ، وذكر المراتب السلطانية وفي العمران الحضري والبلدان والامصار، وفي الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه ، وفي العلوم واكتسابها وتعلمها ، وبعبارة اوضح فان علم الاجتماع هو كل ما يتصل بحياة الانسان وتطوره من الحالة الابتدائية ، اي الوحشية ، الى الحضارة وما تقتضيه من اساليب الحياة .

وقد اتينا باختصار على بعض من آراء ابن خلدون ونظرياته في علم الاجتماع وقد خصص له الجزء الاول من كتابه النفيس . وهذا الاختصار كاف في نظرنا بالنسبة للغاية التي ترمي اليها دراستنا هذه . وعلى من يريد زيادة الامعان والتبحر في هذا الموضوع الواسع ان يختبر اهم المراجع التي اتخذناها مصدرا لعملنا هذا وهي اولا كتاب التعريف ، لابن خلدون نفسه ، ثم

كتب الاساتذة الثلاثة طه حسين ، وساطع الحصرى ، ومحمد عبد الله عنان • وقد ذيل هذا الاخير كتابه الشيق بملحق ذكر فيه جميع المصادر العربية والغربية الصالحة لدراسة فيلسوفنا ومؤرخنا ، وكتب المستشرقين وهى ، علاوة عن تراجم دوسلان وديفانجيه ودومونبين ، : « الاراء الاقتصادية لفيلسوف عربى بالقرن الرابع عشر لمونيه ، نشرتها مجلة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، وكتاب قوتيه فى عصور المغرب المظلمة واطروحة الاستاذ بوتول عن ابن خلدون •

بقى لنا ان نقول كلمة وجيزة عن لغة ابن خلدون وطريقته فى الانشاء وعن طريقة ثانية كان هو مبتكرها بالنسبة للمؤلفين العرب ، وهى التعريف بنفسه •

اما فيما يخص اللغة فانه يمكن لنا ان نقول انه كان لابن خلدون لغة للعلم ولغة للادب • فقد انشأ مؤرخنا علما جديدا • فمن الطبيعى ان يجد المفردات والعبارات اللازمة للتعبير عن مقاصده فى ابواب هذا العلم ، ومن الطبيعى ايضا ان يكتسى هذه المفردات والعبارات وحتى التراكيب شىء من الغموض • فلغة الفلاسفة والمفكرين تحتاج دائما الى شرح وتفسير وتعليق • وقد خصص الاستاذ الحصرى فصلا من كتابه عن ابن خلدون لذكر العبارات والالفاظ التى قصد ابن خلدون بها معنى خاصا فى

دراسته • كلفظـة « الابنية » التي يقصد بها الخيـام فيقـول :ـ « واقتصروا على الظهر الحامل للاثقال والابنية.او كلفظة «المصانع» بقصد الابنية فيقول : « ومنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة ، المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة••» وكذلك عبارات « الوازع العصباني » و « والتكاليف الانشائية » وغيرها من العبارات التى لها معنى خاص بالمقدمة •

والى جانب هذه اللغة المتعقدة المقتضبة نراه يسلك فى ذكر الحوادث التاريخية وفى رسائله الشخصية والادارية طريقة ادبية رائعة تجعله في مكان عال بين كتاب عصره وادبائه • وهو يسلك طريقة ذلك العصر الذى طغى عليه الميـل الى التنميق فى اللغـة وجودة العبـارة واستعمـال البديـع وذلك قبل رحلته الى مصر وانغماسه بين ادباء المماليك •

واما التعريف بنفسه ، الذى افرد له قسما كبيرا من الجزء السابع من كتاب العبر ـ وطبعه محمد بن تاويـت الطنجى على حدة سنة ١٩٥١ ، بمطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، فهو عمل كان ابن خلدون اول من قام به من الكتاب العـرب • وقد اعتبر الاستاذ الاب اليسوعى فؤاد افـرام البستانى هذا العمل من قبيل الدعوة والاعتزاز بالنفس • وهو قول لا نـراه وجيهـا لان التعاريف هى من اهم الوثـائق التى يعتمدهـا المؤرخون لما

تحتوى عليه من ارشادات ٠ وملاحظات شخصية عن العصور التى عاش فيها اصحابها ٠ وهى من قبيل المذكرات التى اعتاد كتابتها كثير من عظماء الناس وحتى من غير العظماء لطـرق نـواح من الحياة لا يتناولها المؤرخون بنفس التفصيل ٠ ولو لم يكتـب ابن خلدون الا التعريف بنفسه ٠ لكان ذلك التعريف كافيا لمعرفـة الكثيـر عن احوال المجتمعات المغربيـة فى ذلـك العصر الحـافل بالحـوادث ٠

فهذا ابن خلدون كمؤرخ وكعـالم اجتماعى ٠ فقد راينـا كيف كانت حياته السياسية سببا فى اكتسابه تلك المعلومـات العميقة المدققة ، وتلك الخبرة الواسعة التى حملته على التاليف٠ فجاء درة يتيمه فى جبين العلم والادب العربيين وان ما استطعنا تقديمه فى هذه العجالة لا يفى بحقه فى الدراسة ٠ فابن خلدون حرى بان تخصص له لا محاضرة واحدة بل عشرات من المحاضرات كى ينظر فى جميع آرائه ونظرياته واساليبه فى الكتابة ٠

تمـت